نظام البريد عند المغول

الدكتور عبد الرحمن فرطوس
كلية الآداب / قسم التاريخ

المقدمة:

عرفت الأمم القديمة التي سبقت ظهور امبراطورية المغول العظمى ، نظام البريد وعملت به في وقت الحرب والسلم، كبلاد اليونان والصين وفارس، كما عرفه العرب المسلمون في وقت مبكر، حيث أنشىء ديوان البريد لأول مرة في عهد الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان .

كان الباعث الرئيس الذي دفع المغول إلى إنشاء نظامهم البريدي الخاص، هو ارتباطه الوثيق بالنظم الحربية ، فالمعروف انهم بعد ان توسعوا في فتوحاتهم إلى بلاد وأصقاع بعيدة خارج موطنهم الأصلي ، وتكوينهم لامبراطورية مترامية الأطراف، برزت عندهم الحاجة إلى أحكام نظام التراسل، من أجل ضبط البلاد التي استولوا عليها، أو تلك التي كانت جيوشهم مازالت تسعى لضمها إلى ممتلكاتهم .

تميز النظام البريدي الذي أنشأه المغول بسمات وخصائص جعلته مختلفاً عن مثيلاته لدى الدول الأخرى، فهو فضلاً عن ما تميز به من دقة وسرعة في نقل الأخبار، فانه اتخذ صورة مؤسسة ضخمة لم يُعرف لها مثيل، من حيث اتساعها الجغرافي، وكثرة العاملين فيها، إذ بلغ عدد المبعوثين والسعاة

ومـوظفي المحطـات البريديـة ومسـاعديهم العشـرات مـن الآلاف، وزادت محطـات البريـد الرئيسـة والفرعيـة عـن مـا لا يقـل عـن عشـرة آلاف محطـة خصص لها أكثر من مائتي ألف رأس من الخيول السريعة .

وفـي الوقـت الـذي كـان فيـه هـذا النظـام، قـد مكَّـن المغـول مـن الاحتفـاظ بمقاليد الحكم في البلاد التي استولوا عليها لعقود من السنين، فانـه فـي الوقـت نفسه، كـان بمثابـة الجسر الـذي وصـل المغول بالمـدنيات المعاصـرة، وربـط بـين شـعوب متباعـدة ومختلفـة حضـارياً كانـت خاضـعة لحكمهـم فـي الصـين وتركستان وعموم المشرق الإسلامي وشرق أوربا .

ومـع هـذه الأهميـة التـي حظـي بهـا نظـام البريـد المغـولي، فانـه لـم يعنـى بالأهمية نفسها، التي لقتها حروب المغول وأعمالهم من قبل البـاحثين، ولعل أهم غايـات هـذا البحـث، هـو الوقـوف علـى السـمات العامـة التـي ميـزت هـذا النظام، الذي كان احد أسباب تفوق المغول العسكري على أعدائهم .

يعد جنكيزخان (٦٠٣-٦٢٤هـ / ١٢٠٦-١٢٢٧م) أول من فكر بإنشـاء نظـام البريـد واعتنـى بـأمره فـي الامبراطوريـة المغوليـة التـي قـام هـو بتأسيسـها[١]، وكـان الباعـث الـرئيس الـذي دفعـه إلـى انشـائه هـو، ان المغـول انطلقوا في فتوحاتهم إلى أصقاع بعيدة خارج موطنهم الأصلي، حيث ضـمت امبراطوريتهم الناشئة أمماً وبلداناً كثيرة، ومن هنا بـرزت الحاجـة إلـى إيجـاد نظـام يحكـم التراسـل مـن خلالـه بـين عاصـمة الامبراطوريـة وولايـات الأطراف، يكون عاملاً على ربط أجزائها ومناطقها الشاسعة، ومساعداً علـى تقوية مركزية الدولة الأم على جميع (خانيات) المغول. فضـلاً عن مـا كـان للبريد من أهمية وارتباط وثيق بـالنظم الحربيـة، حيث كـان مـا يـزال المغـول يخوضون حروب التوسع شرقاً وغرباً .

من الصعب القول على وجه الدقة متى بدأ جنكيزخان بالخطوات الأولـى بالعمل بالنظام البريدي لعدم وجود إشارة صريحة إلـى ذلك فـي المصـادر، ولكن من المؤكد ان النظام البريدي المغولي الذي أرساه جنكيزخان، لـم ينشـأ دفعة واحدة، وإنما حصلت لـه تطـورات متتاليـة فـي ظـل القاآنـات (العظـام) الذين تعاقبوا على حكم دولة المغول، حتى استقر بالشكل النهائي الذي ُعرف به .

تجمع الروايات على انه في بادئ الأمر، كان البريد المغولي في أثناء حكم جنكيزخان يتميز بالبساطة، ولم يبلغ في هذا العهد، ما بلغه في العهود التالية من تطور واتساع، فقد كانت مهامه محصورة فقط في تسهيل انتقال مبعوثي (القاآن) امبراطور المغول الأعظم وحاملي رسائله إلى حكام الولايات وقادة الجيش، والعمل على تحاشي الإعاقة والتأخير في وصولهم، وبالعكس في استقبال الرسائل التي يبعثها هؤلاء له من أجل الاطلاع على الأخبار ومتجددات الأحوال [٢] .

ولم تكن مجموعة الأوامر التي أصدرها بهذا الشأن تتعدى الاهتمام بطرق المواصلات، وفرضه على السكان المحليين في المناطق التي يمر بها هؤلاء المبعوثين توفير الطعام والخيول والعربات لهم، دون مقابل، فيما تكفل الدولة من جانبها توفير الأمن بشكل صارم على الطرق التي يسلكها السعاة من خلال الاعتماد على حراس خاصين أطلق عليهم (قراغول)[٣] .

غير ان هذا التنظيم البسيط الذي بدأه جنكيزخان كان إيذاناً بالانطلاق نحو إرساء نظام بريدي متطور عند المغول يختلف تماماً الاختلاف عن مثيلاته لدى الدول الأخرى، وأول ما ظهرت ملامحه وخصائصه المتميزة تلك، كان في عهد الامبراطور أوكتاي قاآن بن جنكيزخان (٦٢٦-٦٣٩هـ / ١٢٢٩-١٢٤١م)، الذي يعد المؤسس الحقيقي لنظام البريد عند المغول[٤].

ويرجع المؤرخ رشيد الدين (ت ٧١٨هـ/١٣١٨م) القرار الذي حدد على أساسه تنظيم البريد إلى القوريلتاي (مجلس امراء المغول) المنعقد عام ٦٣٣هـ/١٢٣٥م) (عام الشاة) حسب تقويم المغول[٥] .

وعن الدوافع التي حدت بالامبراطور اوكتاي قاآن إلى اتخاذ هذا الإجراء، فان المصادر تكاد تتفق جميعاً على انه يعود للنصيحة التي قدمها له وزيره الصيني يليوتشاساي، وكان هذا الرجل قد أخذ على عاتقه تنظيم، الملك تنظيماً جديداً، وأدخل أعداداً كبيرة من المتعلمين الصينيين في الإدارة، وفي هذا الشأن يروى انه حث الامبراطور المغولي على إنشاء نظام البريد بقوله له :" لقد أنشئت الامبراطورية من على صهوة الجواد، ولكن لا يمكن حكمها من تلك الصهوة " [٦].

وبعد ان أخذ اوكتاي قاآن بنصيحة وزيره، طلب منه الإشراف شخصياً على إقامة هذا النظام، وحسبما تشير المصادر، فان يليوتشاساي استقى عناصر النظام الجديد من النظم الصينية القديمة(٧) .

وعلى أية حال، فان ما قام به يليوتشاساي من تنظيمات وإجراءات أصبحت هي القواعد التي ارتكز عليها النظام البريدي المغولي طيلة العصور التالية، ومن أبرز هذه التنظيمات هو أنهم أطلقوا على البريد اسم (اولاغ) الذي يعني ملك القاآن (الامبراطور) وأسرته، وقسموه إلى نوعين؛ **الأول**: وهو الخاص بعاصمة الامبراطورية المغولية قراقورم، وسمي بـ (ناريت) أو (بارين تاريت)، **والثاني**: هو البريد العادي الذي كان يتم من خلاله التراسل بين الولايات المغولية، وأطلق عليه لفظ (بيات) أو (تيان نيات)(٨). وقد أحاط الفرق بين هذين النوعين شيئاً من الغموض، ولاسيما ان النوع الثاني لم يدون عنه في المصادر سوى النزر اليسير من المعلومات . ولكن بما ان المصادر تكاد تتفق كلها، على ان البريد المغولي وُجد أساساً ليسد حاجة الامبراطور والدولة، وليس الأفراد العاديين من الناس، أو حتى الحكام المحليين، فيبدو ان النوع الثاني لم يكن ذا أهمية تذكر، ومن المؤكد انه كان جزءاً مكملاً للنظام الأول .

يرتكز النظام البريدي المغولي على عنصرين أساسين،

الأول : هو نظام عمل المحطة البريدية، **والثاني:** نظام السعاة والمبعوثين. فبالنسبة لنظام المحطة البريدية التي أطلق عليها لفظة (يام)، فقد اختلفت المصادر في أصل تسميتها ومدلولاتها، فمع ان البعض من الباحثين يرجع أصلها إلى كونها مقتبسة من اللغة الصينية أو التركية، إلا ان أغلب الآراء تشير إلى انها لفظة مغولية قديمة أخذت تُطلق على محطة البريد في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين / السادس والسابع الهجريين حتى ان بريتشنايدر (Bretshnieder) يرى ان أكثر النصوص الصينية لتأريخ المغول، والمعروفة بحوليات اليوان شي والتي دونت في سنة (٦٣٨هـ /١٢٤٠م) استخدمت كلمة اليام على انها لفظة مغولية تدل على محطة البريد (٩).

اما عن معنى الكلمة الحقيقي، فهناك من الباحثين ومنهم بوثير (Pouthier)يرون انها أطلقت أول الأمر على خيل البريد، وليس على

المحطة نفسها، ولكن أغلب الآراء تشير إلى انها كانت تعني (الطريق) في لغة مغول أهل الشمال، والتتر وأهل قازان(١٠).

وبغض النظر عن أصل الكلمة ومدلولاتها، فانها أصبحت ذات معنى عام تدل تحديداً على محطة البريد، وهي المكان الذي يجري فيه تبديل خيل البريد المتعبة بأخرى جاهزة، واستراحة للسعاة والمبعوثين، أو استبدالهم بآخرين، وقد شاع هذا اللفظ ليس في بلاد المغول فحسب، وإنما في معظم البلاد الأسيوية، وأكثر الرحالة الأوربيون الذين زاروا بلاد المغول في تلك الحقبة مثل وليم روبروك وماركوبولوا استخدموا كلمة (يام) للدلالة على كل محطات البريد في البلاد المختلفة التي زاروها (١١) .

قسم المغول الطرق البريدية الكبرى إلى محطات رئيسية وأخرى فرعية، والرئيسية منها هي فقط من يُطلق عليها (اليام)، وعادة تفصل بين الواحدة والأخرى مسافات منتظمة مقدارها يتراوح بين خمس وعشرين إلى ثلاثين ميلاً، ولم يؤثر في انتظامها وعورة الطريق، أو خلوه من السكان، أو افتقاره للمياه، حيث حرص المغول على ان يتوافر لكل محطة ما تحتاج إليه من المؤونة كالحبوب وقطعان الأغنام، فضلاً عن حفر آبار المياه في المناطق الصحراوية(١٢) . ويبدو انها في ذلك على اختلاف ما متعارف عليه في كل الدول الأخرى، ومنها البلاد الإسلامية المعاصرة حيث تكون فيها المسافات بين المحطات البريدية متفاوتة الأبعاد لضرورات أوجبتها عادة وجود القرى أو توفر المياه، وما شابه ذلك(١٣).

وزودتنا المصادر بمعلومات دقيقة ومفصلة عن تلك المحطات البريدية، وطريقة العمل فيها، حيث ورد انها كانت أشبه بمكان للاستراحة يرتاح فيها المبعوثين والسعاة، وهي في العادة عبارة عن بناية كبيرة جميلة تحتوي على مجموعة من الغرف الحسنة التأثيث والمكسوة بأجود أنواع الحرير الصيني، ومجهزة بكل ما يحتاجه المسافر المتعب، وحسب وصف الرحالة ماركوبولو لها، بأنها كانت " تليق بالأمراء "(١٤) . وكان يوجد في الطريق الذي يفصل بين محطتين رئيسيتين، قرى صغيرة هي بمثابة المحطات البريدية الفرعية، تبعد الواحدة عن الأخرى ما يقرب من ثلاثة أميال، يسكنها عادة السعاة من المشاة الموظفين لخدمة الأمبراطور، والذين يتميزون بعلامات خاصة تدل على كونهم عمالاً للبريد، فقد كانوا يتمنطقون بالأحزمة التي تتدلى منها

أجراس صغيرة عديدة تعلن أصواتها للعاملين في المحطات التالية عن قدومهم من بعيد، وحين تسمع القرية التالية أصوات الأجراس، فانها تهيء سعاة جدد يأخذون منهم الرزم البريدية حال وصولهم ويواصلون السير بها . وبهذه الصورة كانت الأخبار تصل إلى العاصمة قراقورم في خلال يومين من مسافات بعيدة يستغرق وصول الأخبار منها بالطرق العادية ما لا يقل عن عشرة أيام(١٥).

وفي كل واحدة من المحطات الرئيسية، كان يتوافر بشكل دائم أربعمائة رأس من الخيل، يتم انتقاء الواحدة منها من بين عشرات الأفراس(١٦)، وقد جرت العادة ان يكون مئتان منها في المرعى لاستخدامها وقت الضرورة، ومئتان أخرى تحت استخدام الايلجية الذين يأتون ويذهبون في مهام يكلفهم بها الامبراطور، حيث اعتاد المبعوثون على ترك خيولهم المنهكة، وأخذ أخرى مضمرة حين يبلغون هذه المحطات (١٧).

وفضلاً عن الخيول كانت، هناك وسائل أخرى لنقل البريد، فوفقاً للتاريخ السري للمغول، كان يوجد أيضاً بكل محطة عشرين جملاً، كما كان يوجد عدداً من الثيران المخصصة لجر عربات البضائع المرسلة عبر البريد(١٨).

وقد استخدمت القوارب في نقل الرسائل، فقد وردت في المصادر إشارات عن السعاة الذين يبلغون في سيرهم نهراً أو بحيرة، فكان يتوجب على الأهالي في تلك المنطقة أن يوفروا لهم بشكل دائم، ثلاث أو أربعة قوارب لعبورهم (١٩) .

وفضلاً عن عملها المعروف، فان محطات البريد تولت أيضاً مسؤولية الإشراف على وصول ومغادرة كل السفراء والتجار الأجانب وتسهيل عملهم. وفي أوقات مختلفة كان يعتمد على مخازن حبوب هذه المحطات كاحتياط في مواجهة حالات القحط والمجاعات التي تحدث في بعض مناطق الامبراطورية(٢٠) . كما وردت إشارات تدل على انها استخدمت لتسهيل حركة وحدات الجيش في حالات الطوارئ(٢١) .

كان يقف على رأس إدارة (اليام) موظف أعلى يُطلق عليه في المصادر المغولية لفظ (اليامجي)، له صلاحيات واسعة،وهو المتولي لأمر البريد وتنفيذ أموره في الإيراد والاصدار، وكان يختار من بين الذين لهم معرفة بالقراءة والكتابة، كما كان يتعين على الذين يعملون في محطات

البريد بالوطن المغولي الأصلي في أغلب الأحيان أن يكون لهم الماماً باللغة الاويغورية، وهي لغة البلاط الرسمية(٢٢) .

ويبدو ان وظيفة اليامجي كانت تحظى بمكانة مرموقة في المجتمع المغولي، ويحصل صاحبها على امتيازات كبيرة كالأمراء وقادة النوين، وما يدل على تلك المكانة الخاصة لهذا المنصب، هو ما ذكره الجويني من ان الامبراطور اوكتاي عندما ثأر لنفسه من إحدى قبائل الصين المتمردة، واسترق بناتها جميعاً، قام بتوزيع قسم منهن على الأمراء والقادة، وأرسل البقية الباقية إلى محطات البريد كمحظيات للترفيه عن اليامجية(٢٣).

ولكن هذه المكانة التي يتمتع بها اليامجي لم تمنع من فرض الرقابة الصارمة عليه من قبل سلطة الحكومة، فوفقاً لرواية التاريخ السري للمغول، انه في حالة وصول الايلجية للمحطة البريدية، ولم يجدوا العدد المعين من الخيل والماشية والعربات والثيران بالمحطة، قان نصف أملاك الشخص المسؤول عنها تصادر كعقوبة له على تقصيره في أداء عمله (٢٤) .

ومما تجدر الإشارة إليه، هو ان عمل اليامجي كان مقتصراً على إدارة محطة البريد التي يعمل بها دون عمل الجاسوسية، ولم يكن عيناً للامبراطور على حاكم الاقليم الذي يعمل به، أو استطلاع أخبار الاعداء، وهو في هذا على خلاف ما كان يقوم به موظف البريد الذي يسمى بصاحب الخبر في البلاد الإسلامية، لكون المغول أنشأوا نظاماً جاسوسياً خاصاً ليس له علاقة بنظام البريد(٢٥) .

وإلى جانب اليامجي كان هناك عدد من الموظفين الذين يساعدوه في عمله، ففي كل محطة كان يوجد كاتب (بيتكجي) مهمته تسجيل مواعيد وصول الرسل القادمين، وتاريخ سفر المغادرين الآخرين منهم، وأيضاً يوجد كاتب آخر يقوم بنفس العمل حتى في المحطات الفرعية الصغيرة التي تقع بين المحطات الرئيسية(٢٦).

وفي كل محطة كان يوجد موظف خاص يتولى مسؤولية خزن الهدايا والحاجات التي تخص الأمبراطور من المواد الثمينة كالذهب والثياب وآلالات والأسلحة والنفائس الأخرى التي تجلب له من أقاليم الدولة المختلفة، وموظف آخر انيطت به مهمة حفظ المواد

الغذائية [٢٧] . وفضلاً عن ذلك كان هناك عدد من سائسي الخيول، وسواق العربات التي تجرها الثيران والتي يستخدمها المبعوثون في حالات نقل البضائع، وهناك عدد من الرعاة الذين يقومون برعي الخيول والماشية وحلبها [٢٨] .

ولضمان متابعة سائر هذه المحطات وانتظام عملها، فقد كان يعين عليها المشرفون الذين يقومون بزيارات دورية شهرية لها ويطلعون المسؤولين عن أحوالها إذا لزم الأمر ذلك [٢٩] .

أما العنصر الثاني الذي يرتكز عليه نظام البريد، فهم المبعوثون والسعاة، الذين يطلق عليهم في المصادر المغولية عموماً لفظ (الايلجية)[٣٠]، وهو لفظ اقتبسه المغول من الترك، وقد شابه الغموض نوعاً ماحيث استخدم تارة ليدل على سعاة البريد السريع، أو مبعوثي القآن وحاملي رسائله، وتارة أخرى أطلق على ممثل دولة ما، أو مبعوثاً من قبلها، ولكن يفهم من المصادر المغولية انه يطلق في الاعم الأغلب على الموظفين الذين ينقلون أوامر السلطان والرسائل الرسمية التي تخص البلاط المغولي، ولا يقصد به السعاة العاديين وفيما يخص عمل الايلجية، كان يشترط عليهم ان يكونوا من حاملي (البايزة)، وهو التصريح الذي بواسطته يمكنهم المرور عبر محطات البريد، والاستفادة من خدماتها[٣١] .

وقد حظي هؤلاء الايلجية بمكانة خاصة، كانت تختلف باختلاف نوع البايزة التي يحملونها، حيث كانت هذه الشارة تعطى للأشخاص حسب الطبقة التي ينتمون إليها، أو العمل المكلفين به، ويأتي في مقدمة هؤلاء مكانة مبعوثي الامبراطور والأمراء [٣٢].

وتعطي المصادر وصفاً للنظام الذي يعمل به السعاة العاديين، والمعتمد أساسا على تبديل الرسل والخيل معاً في كل محطة بريدية، فعندما يصل حامل الرسالة إلى إحدى المحطات يأخذ منها فرساً جاهزة ومسروجة، وينطلق بها بكل سرعة حالما يمتطيها، وقبل ان يصل للمحطة التالية، يأخذ أولئك الذين يسمعون الأجراس في المحطات الفرعية، وهي ترن من بعيد بتهيئة أحد السعاة مع فرس أخرى، والذي يستلم بدوره الرزم البريدية من الساعي الأول وينطلق بكامل سرعته للمحطة التالية، وهكذا تستمر العملية، فمن كل واحدة إلى ما يليها حتى يصل البريد المرسل إلى المكان المقصود .

وفي حالة الضرورة، التي يضطر فيها المبعوثون للسير ليلاً، ولاسيما في تلك الليالي التي يُفتقد فيها القمر، كان يصطحبهم من المحطة للأخرى أشخاص يحملون المشاعل النارية ويركضون أمامهم، لإنارة الطريق في الشعاب التي يجهلون مسالكها(٣٣).وبواسطة هذا النظام كان البريد يصل بسرعة مدهشة، حيث كانت الرسائل المرسلة تقطع في اليوم الواحد أكثر من مائتي ميل . ولم يكن غريباً على الامبراطور أن يعلم بوصول المسافرين (للاردو) الخاص به، قبل ان يبلغوه بمدة طويلة، ويروي ماركوبولو انه وأفراد اسرته كانوا على مبعدة أربعين يوماً منه، حين قابلوا رسله، الذين أمرهم بتسهيل سفرهم واعزازهم واكرامهم(٣٤).

ومن المعلومات الطريفة التي تروى في هذا الشأن، انه في موسم الفواكه، كان يحمل ما يجمع منها صباحاً في بكين عاصمة الصين، إلى الامبراطور في قراقورم مساء اليوم التالي، مع ان المسافة تستغرق عادة عشرة أيام سفر(٣٥) .

اما المبعوثين المهمين (الايلجية) والذين لا يستبدلون بآخرين في المحطات، وإنما يتولون المهمة المناطة بهم كاملة، وذلك من باب الحذر، لأهمية ما يحملون من رسائل لا تصلح للتداول، فان ماركوبولو أعطى تفصيلات بشأنهم بقوله : " عندما تقتضي الضرورة بان يتنقل المبعوثون بسرعة فائقة،في حال نقل أنباء عن اضطرابات تحصل في أي جزء من البلاد، أو قيام زعيم ما بتمرد، أو لأي أمر آخر مهم، حيث كان يقطع يومياً مسافة لا تقل عن مائتي، أو مائتين وخمسين ميلاً، بركوبهم خيولاً قوية الحركة، وكان هؤلاء السعاة يشدون أجسامهم شداً محكماً، ويعصبون رؤوسهم ويدفعون خيولهم إلى الجري بأقصى سرعة ممكنة، حتى يصلوا إلى للاستراحة التالية على مسافة خمسة وعشرين ميلاً، حيث كانوا يستبدلون خيولهم المتعبة، بأخرى جاهزة، ومن ثم يتابعون الركوب، دون ان يحصلوا على نصيب من الراحة، ويظلون على هذا المنوال حتى يقطعوا مسافة المائتي ميل، في نهاية النهار" (٣٦) .

وفضلاً عن الأسس التي وضعها يليوتشاساي للنظام البريدي المغولي، فان الامبراطور المغولي أوكتاي قاآن أوعز بان تتخذ إجراءات أخرى بما يكفل انتظام عمله دون عراقيل وضرر بمصالح الناس، وعلى حد قول

الجويني : " حتى لاتحدث المضايقة للعسكر والرعية " [٣٧] . ومن بين هذه الإجراءات، انه أمر ان تقام المحطات البريدية في معظم المناطق على امتداد الطرق التجارية الكبرى، وحتى في المناطق المهجورة من السكان، وقرر ان تزود هذه المحطات بمخازن لحفظ المواد الغذائية، حيث أمر نواب الامبراطور بتوفير ارساليات منتظمة من الغلال لكي تخزن في الأماكن المخصصة لها، وان تساق إليها قطعان الماشية، وحفرت الآبار لتوفير المياه على امتداد الطرق البريدية الصحراوية، وكان الهدف من هذا الإجراء هو ان يجد المبعوثين والسعاة بالمحطات ما يلزمهم، من الخيل والمأكل والمشرب حتى يحد مما كان شائعاً قبل عهده عندما كان يسمح للمبعوثين ان يستخدموا منازل الأهالي وأملاك الرعاة [٣٨].

وحاول أيضاً ان يقلل من ضغط أمراء العائلة المالكة على المحطات البريدية، عندما ثبت عدد الخيول الممكن استخدامها لكل شخص من هؤلاء، وحسب الطبقة التي ينتمون إليها، بعد ان كانوا في السابق يضعون أيديهم على أي عدد من خيل البريد يرغبون به، والزمهم بابراز شارة المرور المعروف بالبايزة التي تحدد مقدار ما يتمتعون به من صلاحيات،عند وصولهم إلى تلك المحطات [٣٩] .

وحرص اوكتاي قاآن على توفير الأمن للمحطات البريدية، حيث يروي الجويني انه خصص لكل (يام) كتيبة من الجند لحراستها[٤٠] . إلا ان ما يؤخذ على إجراءات الامبراطور المغولي، هو انه سمح لسفراءه ومبعوثيه من الذين يكلفهم بمهام تحمل طابع الخطورة والاستعجال فقط، إذا لم تتوفر الخيل بالمحطات، ان يمروا بمنازل القبائل الرعوية، واستخدام خيل السكان المحليين، مما أدى إلى ضروب من الفساد، وبحسب ما جاء في التاريخ السري للمغول " يجتاز السفراء في غدوهم ورواحهم أراضي البدو، الأمر الذي يؤدي إلى تعطيل مهامهم، ويسبب الأذى للسكان " [٤١] .

وبذل خلفاء اوكتاقاآن كل جهدهم لتطبيق هذه الإصلاحات وتجاوز عيوبها، فما ان اعتلى مونكَو عرش المغول في سنة (٦٥٨هـ / ١٢٦٠م) حتى أصدر قراراً يلزم بأن لا يأخذ حامل البريد في أية محطة أكثر من أربعة عشر من الخيل، وان لا يستخدم البتة خيل البريد من كان مسافراً

لمصلحة شخصية، ومنع بشكل صارم عمال البريد من التجاوز على خيل السكان المحليين بأي حال من الأحوال(٤٢) .

وتتفق جميع المصادر على ان النظام البريدي بلغ مبلغاً كبيراً من الدقة والسرعة، ووصل إلى أوج تطوره في أثناء حكم قوبيلاي حفيد جنكيزخان (٦٥٨-٦٩٣هـ/١٢٦٠١٢٩٤م)، الذي ألف المدنية الصينية وأصبحت بلاد المغول في عهده أوسع امبراطورية تحكم من قبل رجل واحد، حيث شملت البلاد الواقعة ما بين كوريا في شرق أسيا ونهر الدنيبر في أوربا، وضمت في جنباتها بالإضافة إلى بلاد المغول، ممالك وبلاد عظيمة مثل الصين والتبت والتركستان، ومملكة الجغتاي في ما وراء النهر، والقبجاق وأجزاء من الهند وفارس والعراق. وقد غطت جميع هذه الممالك والبلدان التي تتخللها تضاريس متباينة من الجبال الوعرة والمفازات الصحراوية والبحيرات، شبكة واسعة من المحطات البريدية، إذ بلغ عددها أكثر من عشرة آلاف محطة، خصص لها أكثر من مائتي ألف راس من الخيل، وكانت نموذجاً في الدقة والسرعة في نقل الأخبار(٤٣) .

ورواية الرحالة ماركوبولو تكاد تتفق حرفياً مع روايات المصادر المغولية بهذا الشأن، حيث أشار إلى ان هذا النظام كان في أثناء حكم قوبيلاي، عجيباً ومجدياً بصورة يصعب وصفها، بقوله:" ان المبعوثين والسفراء ورسل الملوك كانوا يأتون ويذهبون إلى أية مقاطعة ومملكة ضمن الامبراطورية، بسرعة وراحة عظيمة، وكانت سلطة (القاآن)، وتفوقه على سائر الملوك والاباطرة تبدو ذات أثر في كل ذلك . وقد كان يستخدم في ممتلكات القاآن الواسعة، لمثل هذه الغاية مائتا ألف رأس من الخيل وعشرة آلاف محطة بريدية، مؤثثة تأثيثاً جيداً " (٤٤).

وأضاف " ان من أنظمة القاآن المفيدة والجميلة، تشجير جوانب الطرق البريدية بغرس أنواع من الأشجار الكبيرة الشاهقة، مع ترك فراغ طوله خطوتان بين الشجرة والأخرى، ولهذا التشجير عدا فوائد التضليل، فائدة إظهار ملامح الطريق، عندما تكون الأرض مكسوة بالثلوج، الأمر الذي يساعد ويريح المسافر. ويتم التشجير على طول الطرق ذات التربة التي تسمح بنمو الأشجار، وعندما يمتد الطريق إلى أراضٍ صحراوية أو جبال صخرية يستحيل معها نمو الأشجار، كان القاآن يأمر بوضع حجارة كبيرة،

تكون بمثابة العلامة الفارقة في الطريق، وكان أيضاً يعين مفتشين يلاحظون تنظيم هذا كله ..." (٤٥).

وعلى أية حال، فان الشبكة البريدية في عهد قوبيلاي كانت مقسمة إلى ما لا يقل عن اثنا عشر خطاً رئيسياً موزعة على الطرق التجارية الكبرى، وترتبط جميعاً بالعاصمة قراقورم، ومع غياب معلومات تفصيلية عن جميع تلك الطرق، فيبدو من إشارات المصادر ان الرئيسية منها هي :

١) طريق الصين، وهو أول الخطوط البريدية التي تم إنشاءها وأكبرها، وهو نموذج للطرق البريدية المغولية، ويبدأ من العاصمة قراقورم ويجتاز معظم أراضي منغوليا ويمر بولاية توانغ هوانغ، ثم ولاية كانسو الصينيتين وينتهي عند العاصمة بكين حيث كانت تحكم اسرة الكين في السابق، ويبلغ مجموع محطاتها أكثر من سبع وثلاثين محطة. وتشير المصادر إلى انه فضلاً عن الرسائل البريدية التي تنقل عبر هذا الخط، فقد كانت تمر عبره باليوم الواحد أكثر من خمسمائة عربة، من تلك التي تجر الواحدة منها ست من الثيران، وهي محملة بكل ضروريات الحياة والأشياء النفيسة الأخرى (٤٦) .

٢) الطريق الذي يربط قراقورم بتركستان ويمر بالمدن المشهورة مثل سمرقند وبخارى والماليغ وغيرها .

٣) الطريق الذي يربط الصين بهضبة التبت .

٤) الخط الذي يصل بلاد القبجاق ويمر في مدن صراي وبلاد الترك وسائر شمال البحر الأسود وشرق بحر قزوين .

٥) الخط البريدي الذي يصل إلى الري وعراق العجم وبلاد فارس وسجستان والهند (٤٧) .

وهناك طرق فرعية لم تعط المصادر عنها معلومات مهمة . وبالطبع لم يكن من المستطاع تطبيق النظام البريدي بصورة شاملة موحدة في جميع أنحاء الامبراطورية المغولية، ذلك ان بعض هذه الولايات كان لا يزال يحكم من قبل أسر محلية أعلنت خضوعها طوعاً للمغول، مما أتاح لها الاحتفاظ بإدارتها الخاصة .

نقل المغول العمل بنظامهم البريدي إلى المشرق الإسلامي :

اهتم المغول كثيراً بتأمين طرق مواصلاتهم قبل المباشرة بعملهم العسكري ضد المشرق الإسلامي، فترد إشارة إلى ان هولاكو أعد رسلاً (سريعي السير) حسب وصف رشيد الدين، وقد استخدمهم في نقل الرسائل إلى الحكام المحليين، والتي يطلب منهم فيها المساعدة للقضاء على طائفة الإسماعيلية [٤٨] .كما وردت إشارات أخرى إلى انه تراسل مع الخليفة العباسي المستعصم بالله بواسطة ايلجيات خاصة أعدت لهذا الغرض [٤٩] .

وعندما تمكن هولاكو من اجتياح البلاد الإسلامية، وقام بتأسيس الدولة الايلخانية التي تدين بالولاء والتبعية لامبراطورية المغول العظمى، على أنقاض الخلافة العباسية، حاول الاستفادة من بعض المؤسسات والنظم الإسلامية السابقة، فاستبقى منها كل ماله من مساس مباشر بحياة رعاياه الجدد من المسلمين مثل أنظمة الدواوين والمالية وغيرها، إلا ان ما يلاحظ ان المغول نقلوا إلى البلاد الإسلامية، نظامهم البريدي الخاص المعمول به في الامبراطورية المغولية، ليساعدهم في إدارة الدولة الجديدة، وأصبحت المحطات البريدية استكمالاً لمثيلاتها في البلاد الأخرى الخاضعة لحكم المغول، ولم يعملوا بالنظام البريدي الإسلامي العريق الذي يعود تأسيسه إلى زمن الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان [٥٠] . ويبدو انهم أخذوا في الحسبان كون البريد إحدى المؤسسات التي يعتمد عليها الايلخان في إدارة الدولة، وتتبع أخبار الحكام، ونقل المكاتبات بينهم، ولا يتعلق بحياة الناس ، فضلاً عن ان النظام البريدي الذي أقامه العباسيون في مشرق العالم الإسلامي، بلغ في هذه الحقبة مرحلة الاضمحلال والوهن، وفقد كل ما كان له من أهمية .

وعلى أية حال، فان هولاكو جعل أعباء البريد تقع بشكل كامل على السكان المحليين، فيذكر القلقشندي " ... ملك بني هولاكو، فلهم مراكز تسمى خيل الاولاق وخيل اليام يحمل عليها، لا تشترى بمال السلطان ولا يكلف ثمنها، وإنما هي على أهل تلك الأرض" [٥١].

ونتج عن ذلك، كثير من المظالم، فكان رجال البريد يعتدون على من يمرون بهم من الأهالي، ويسلبونهم متاعهم ودوابهم، [٥٢] .واستمر عمل البريد يعاني من الانحلال والفساد طيلة عهد الحكام الذين تعاقبوا على حكم الدولة الايلخانية، ولم ينته إلا بوصول السلطان محمود غازان إلى الحكم في سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٥م والذي اعتنق الإسلام، وقام بجملة من الإصلاحات شملت مختلف جوانب الحياة، ومن جملتها إصلاح النظام البريدي[٥٣].

كان المعمول به قبل غازان ان يتم إيفاد مبعوثين لانجاز المهام الحكومية وإبلاغ الأخبار للمدن، وأسيء استخدامه في عصر الايلخانات حتى بلغ ان كل أميرات وأمراء المغول وقوادهم أخذوا يعطون أتباعهم لقب مبعوثين ويوفدونهم للولايات، ومع انه كان بكل محطة بريد أربعمائة فرس للركوب، لم يكن المبعوثون يجدون منها ما يكفي لأداء مهامهم؛ فكانوا يضطرون لمصادرة جياد أي شخص يتصادف وصوله إلى المحطة. وبلغت سطوة المبعوثين إلى الحد الذي جعل قطاع الطرق واللصوص يطلقون على أنفسهم لقب مبعوثين ويستولون على جياد الأهالي بهذه الصفة؛ ولم يكتف الايلجية بذلك بل كانوا يستولون على كل ما يشاءون باسم العلف من أهالي القرى التي يمرون بها على الطريق . وكان كل مبعوث يصطحب معه عدداً كبيراً من المرافقين باعتبارهم خداماً يساعدونه على سرعة إنجاز أعماله (٥٤) .

وكان يحدث في بعض الأحيان أن يوضع في الديوان الخاص بالمحطة مئتا مقعد لجلوس المبعوثين، حيث كان من المتعارف عليه ان (الايلخان) يعجل باستقبال المبعوث المكلف بمهمة عاجلة قبل غيره من المبعوثين، لذا كان المبعوثون يشتاجرون فيما بينهم أحياناً، على إثبات أهمية المأمورية المكلفين بها، وتكون الأولوية لمن تكون له الغلبة (٥٥) .

ولدى مرور المبعوثين بالولايات، كان ولاتها يستضيفونهم في بيوت الأهالي وأصحاب الحرف، وكان المبعوثون ينهبون كل ما تطاله أيديهم في بيوت الأهالي، وكانت تصدر عن بعضهم تصرفات أخرى غير لائقة (٥٦) .

ولإبطال هذا الوضع، أمر غازان بإنشاء محطة بريد خاصة لمبعوثي الايلخان المكلفين بمهام حكومية في كل ثلاثة فراسخ، وتخصيص خمسة عشر جواداً في كل محطة، وكل مبعوث يحمل وثيقة عليها (التمغا) يحصل من المحطة على فرس، وعهد بإدارة كل محطة لأحد من أمراء المغول، وخصص لولاة الحدود مقداراً من الورق الأبيض المختوم ليعطوه لمبعوثيهم في حالة الضرورة القصوى . وفي حالة الأخبار العاجلة، يقوم الوالي بختم رسالته وتسليمها لعامل المحطة لكي يركب أحد الخيول ويوصلها إلى المحطة التالية، وهكذا إلى أن تصل الرسالة إلى المكان المقصود . وبذلك كان السعاة يقطعون ستين فرسخاً كل يوم، فمثلاً أصبحوا يقطعون المسافة من خراسان إلى تبريز في ثلاثة أو أربعة أيام في حين ان المبعوث نفسه لم يكن يستطيع ان يقطع أكثر من أربعين فرسخاً في اليوم(٥٧) .

ويصف الوصاف نظام العمل الجديد بقوله : " ونفذ حكم الفرمان (القانون) بتأكيد بليغ بقطع ستين فرسخاً في اليوم والليلة، وكل مسرع أربعين فرسخاً، وكل رسالة يكلفون بتوصيلها يقومون بختمها بالخاتم الذهبي، ويترك في أعلاها بياض وتلصق عليها تمغا تحمل صورة فارس أو محارب يلبس درعاً، ويثبتون عليها تاريخ مغادرة المبعوث باليوم والساعة، حتى يتمكن عمال محطة البريد من تجهيز الجياد الاحتياطية بعد وصوله. وإذا وصل في الموعد المحدد، وأوفى بشروط السرعة، يتم رسم دائرة في أسفل الرسالة يمر قطرها من القمة إلى الوسط ويصل أسفلها. وإذا تكاسل وتأخر ساعة ترسم دائرها قطرها أفقي من اليمين إلى اليسار . وحين يقف عمال المحطة على تهاونه وإهماله يبلغون الولاة ليعاقبوه، ويعينوا بديلاً عنه على الفور" (٥٨).

وإلى جانب هذا النظام، أمر غازان بإعطاء المبعوث نفقات الطريق (اخراجات)، وبإنشاء منازل تعرف ببيت المبعوثين (ايلجي خانة) في كل مدينة ليقيموا بها . كما قرر عدم أحقية أي شخص، سوى الايلخان ونوابه في إيفاد المبعوثين المهمين . واتخذ إجراءاً يكفل مراقبة محطات البريد، عندما أمر بتعيين عاملان كلفا بنقل أخبار محطات البريد من محطة إلى أخرى عند الضرورة، وكان هذين العاملين يقطعون ثلاثين فرسخاً في اليوم الواحد (٥٩) .

وقد ظل الاهتمام بالعمل بالنظام البريدي، حتى بعد نهاية دولة المغول، فقد اتبع الجلايريون التنظيمات التي وضعها السلطان محمود غازان، فقد ورد انهم قسموا الطرق إلى مراحل، وفي كل مرحلة محطة تسمى (يامخانة)، يربط فيها عدد من الخيول المخصصة للبريد تسمى خيل اليام، وكان يوفر لها العلف، ويعين لها موظف يتولى إداراتها يقال له (اليامجي)، ويخصص لها المبالغ اللازمة من الديوان، ووردت إشارات كثيرة تدل على ذلك، فقد ذكر انه في سنة ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م خص مبلغ تسعين ألف دينار من أموال بغداد لليامات المربوطة في طريق تبريز، وفي سنة ٧٦٥هـ / ١٣٦٣م خصص مبلغ ثلاثين ألف دينار من أموال بغداد لليامات المربوطة في طريق خراسان (٦٠) .

المصادر والمراجع

١) الجويني، علاء الدين عطا ملك (ت ٦٨١هـ ١٢٨٢م)، تاريخ جهانكشاي، بسعي واهتمام محمد بن عبد الوهاب القزويني،(ليدن:مطبعة بريل،١٣٥٥هـ/١٩٣٧م)،ج١،ص٢٢٣.
٢) بارتولد .ف .ف، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والأداب، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م)، ص٦٥٦ .
٣) المصدر نفسه، ص٦٥٦ .
٤) الجويني، تاريخ جهانكشاي ، ج١،ص٢٢٣؛ السيد الباز العربي، المغول (بيروت: دار النهضة، ١٩٦٧) ص١٦٢ .
٥) جامع التواريخ، تحقيق بهمن كريمي، (طهران : شركة نسبي حاج، ١٣٨٨هـ.ش٤،ج١،ص٣٤٠ .
٦) الجويني، تاريخ جهانكشاي، ج١، ص٢٢٤ .
7) Philips. R. D,The Mongols, (London: 1967),p.78.
٨) بارتولد، تركستان، ص٦٥٧ .
9) Mediaeval Researches from eastern Asiatic Sources, (London, 1967), vol.1,p.188 .
10) Ibid,vol.1.p,188.
11) Philips. R. D, The Mongols, p.78 .

وظلت هذه اللفظة مستخدمة حتى القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، بدليل ان كانت يوميات سفارة شاهرخ إلى البلاط الصيني سنة ٨١٢هـ / ١٤٢٠م استخدم كلمة (يام خانة) للدلالة على محطات البريد في الصين، وأيضاً المصادر الروسية أطلقت لفظ (يام ششك) على الساعي الذي يحمل البريد . انظر Bretschnieder , Mediaeval . vol .1 p.188

12) Morgan. D, Medieval Persia (1040-1797) (Singapore, 1988),p.180 .
١٣) القلقشندي، أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٧)،ج١٤،ص٣٧٢.
١٤) ريتشارد جي ولش، ماركوبولو ومغامراته واستكشافاته، ترجمة حسن حسين الياس، (بغداد: دار المنشورات البصري، ١٩٥٩)، ص٣٦ .
١٥) المصدر نفسه، ص٣٧ .

١٦) الجويني، تاريخ جهانكشاي،ج١،ص٢٢٤ . وهناك مبالغة في بعض المصادر عندما تشير إلى ان اختيار فرس البريد يتم من بين ألف فرس . انظر : بارتولد، تركستان،ص٦٥٧ .

17) Howorth . H.H, History of the Mongols, from the 9 th to the 19th Century , (London,1927),vol.1p.258.

١٨) بارتولد، تركستان، ص٦٥٧ .

١٩) ريتشارد جي ولش، ماركوبولو، ص ٣٧ .

20) Prawdin .M, The Mongol Empire, Its Rise and Legacy, (London, 1953) ,p.241 .

21) Ibid, p.124 .

22) Ibid, p.125 .

٢٣) تاريخ جهانكشاي، ج، ص٢٢٦ .

24) Howorth . H.H History of the Mongols, vol.1.p,258.

٢٥) القلقشندي، صبح الاعشى، ج١٤،ص ٣٦٩ .

٢٦) ريتشارد جي ولش، ماركوبولو، ص٣٧ .

27) Philips .R . D, The Mongols, p.79 .

٢٨) بارتولد، تركستان ، ص ٦٥٧ .

٢٩) ريتشارد جي ولش، ماركوبولو، ص٣٧ .

٣٠) الجويني، تاريخ جهانكشاي،ج١، ص٢٢٦ .

31) Philips . R . D, The Mongols, p.79 .

32) Ibid, p.79 .

33) Howorth . H.H History of the Mongols, vol.1.p,259 .

٣٤) ريتشارد جي ولش،ماركوبولو، ص ٣٨ . والاردو يطلق عند المغول على مقر الحاكم المغولي . لنظر : (Saunders, The History of the Mongol Conquests (London: 1957) , p.xi .

٣٥) المصدر نفسه، ص ٣٧ .

٣٦) المصدر نفسهن ص٣٧ .

٣٧) تاريخ جهانكشاي ، ج١، ص٢٢٧ .

٣٨) بارتولد، تركستان ، ص٦٥٧ .

٣٩) الجويني، تاريخ جهانكشاي، ج١ ،ص٢٢٨.

٤٠) المصدر نفسه،ج١ ،ص ٢٤٨ .

٤١) بارتولد، تركستان ، ص٦٥٧ .

٤٢) رشيد الدين،جامع التواريخ،ج٢ ،ص٤١٨ .

٤٣) المصدر نفسه،ج٢، ص ٧٠٢ .

٤٤) ريتشارد جي ولش، ماركوبولو، ص٣٦ .
٤٥) المصدر نفسه، ص ٣٨.
46) Prawdin . M, The Mongol empire, p.241 .
47) Ibid,p.241 .
٤٨) جامع التواريخ،ج٢ ،ص ٦٨٨ .
٤٩) المصدر نفسه،ج٢ ،ص٦٨٨ .
٥٠) القلقشندي، صبح الاعشى، ج١٤،ص٣٦٧ .
٥١) المصدر نفسه،ج١٤، ص٣٨٥.
٥٢) مصطفى طه بدر، مغول إيران بين المسيحية والإسلام، (القاهرة: دار الفكر العربي، بلا.ت)،ص ٤١ .
٥٣) رشيد الدين، داستان غازان، تحقيق كارل يان(لندن: ١٣٥٨هـ/ ١٩٤٠م)، ص٢٧٠.
٥٤) المصدر نفسه، ص ٢٧١-٢٧٤ .
٥٥) ميرخواند، حميد الدين محمد بن خداوندشاه(ت٩٠٣هـ / ١٤٩٨م)، روضة الصفا في سير الأنبياء والملوك والخلفاء، (طهران: جاب بيروز، ١٣٣٩هـ.ش)، ج٣، ص ١٤٥ .
٥٦) رشيد الدين، جامع التواريخ، ج٢، ص٨٨٢. Boyle .J.A, Dynastic and Political of the Ilkhans, in Cambridge Hiistory of Iran, vol.5.p.381.
٥٧) رشيد الدين، داستان غازان، ص٢٧٧ .
٥٨) تجزية الأمصار وتزجية الاعصار (المعروف بتاريخ وصاف)، (طهران: طبع حجر،بلات)، ج٣،ص ١١٨ .
٥٩) رشيد الدين، داستان غازان ، ص ٢٧٧، عباس اقبال، تاريخ مفصل إيران، ط٣، (طهران: جابخانة بسهر، ١٣٤٧هـ .ش ، ص ٢٣٤ .
٦٠) نقلاً عن نوري العاني، العراق في العهد الجلائري ، (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٦)، ص ١١٦.